عمـــــود الشـــــعر العـــــربى

بين

القـــدامى والمحـــدثين

بقلم : دكتـــور عبد الله حسين على سليمان

الحديث عن عمود الشعر يقتضى بالضرورة تحليلا لمعنى الشعر فى اطار الحدود والتعاريف التى وضعت له اذ أن « العمود » ليس شيئا مستقلا بذاته وانما هو معنى قائم بالشعر باعتباره فنا له أصوله وقواعده .

وقد **عرف اللغويون** الشعر بأنه العلم بالشىء والتفطن له وادراكه .. وقالوا ان كل علم يدعى شعرا ولكنه غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافيـــة(١) . **وعرف قدامة الشـــعر** بأنه قول موزون مقفى يدل على معنى(٢) ... وهذا التعريف لا يختلف كثيرا عن تعريف الخليل للشعر مما هو مذكور فى علم العروض .. ويبدو هذا التعريف قاصرا يشوبه الغموض فليس كل موزون مقفى بصـــالح لأن يكون شعرا بالمفهـــوم الفنى للشعر ، وتعريف قدامة لا يخرج المنظومات العلمية بهذا الاعتبار وكلمة « معنى » الواردة فى تعريفه يشوبها الغموض اذ أنه أوردها بلا تحديد .

وابن طباطبا العلوى يعرف الشعر بأنه « كلام منظوم بائن عن المنثـــور الذى يستعمله الناس فى مخاطباتهم بما خص من النظم الذى ان عدل عن جهته مجته الاسماع وفسد على الذوق(٣) .. **وابن رشيق** يتحدث عن حد الشعر وبنيته فيقول : « الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء وهى اللفظ والوزن والمعنى والقافية فهذا هو حد الشعر لأن من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر لعدم القصد والنية(٤) .. **وابن خلدون** يعرف الشعر بقوله « هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والاوصاف المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجارى على أساليب العـــرب المخصوصة به(٥) .. ومن خلال هذا التعريف نرى أن أركان الشعر تنحصر فى الكلام البليغ المؤثر والخيال وما يمثله من المجاز والتشبيه والاســـتعارة والوزن والقافية وأن يكون جاريا على أساليب العرب ومنهجهم فى أغراضهم المختلفة والا يخرج عن هذا المنهج بالابعاد فى التكلف والتعمق البالغ فى التفكير فيخرج بذلك عن المنهج العربى المألوف(٦) .

---

(١) القاموس المحيط جـ٢ ص٦٠ .
(٢) نقد الشعر ص ٣ .
(٣) عيار الشعر ص٣ .
(٤) العمدة جـ١ ص٩٩ .
(٥) المقدمة ص٥٢٥ .
(٦) أسس النقد الادبى عند العرب ص١١٨ .

وعمود الشعر : ما به قوام الشعر وما يعتمد عليه فى تحقيق معناه . والمقصود به فى اطلاق النقاد « تقاليد الشعر المتوارثة والمبادىء التى سبق بها الشعراء الاولون واقتفاها من جاء بعدهم حتى صارت سنة متبعة وعرفا متوارثا »(١) أو هو فى أبسط معناها : كل التقاليد الفنية التى التزمها القدماء فى قصائدهم فى الافكار والمعـــانى والاخيلة والاغراض والالفـــاظ والاساليب والصور وغيرها .. فبهذه التقاليد هى عمود الشعر والقصائد التى تلتزم به هى قصائد « عمودية » .

ويوضح « المرزوقى » المتوفى عام ٤٢١هـ معنى عمود الشعر فيقول : « انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والاصابة فى الوصف والمقاربة فى التشبيه والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار له ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما فهذه سبعة أبواب هى عمود الشعر ولكل باب منها عيار(٢) : فعيار المعنى أن يقبله العقل الصحيح والفهم الثاقب فى اطار من واقع الحياة ومعارف العلم . وعيار اللفظ أن يقبله الذوق المرهف الذى هذبته الرواية وصقلته الثقافة وأوتى حظـــا من الادراك الواعى للقيم الجمالية للالفاظ بما فيها من سلاسة وألفة ودقة وقوة ايحاء وبما تجنبته من ثقل وجفوة وبعد واغراب . وعيار الاصابة فى الوصف الذكاء وحسن التمييز ومعرفة الصفات الجوهرية للاشياء . وعيار المقاربة فى التشبيه الفطنة لما بين الاشياء من صلات وحسن تقديرها ليقـــع التشبيه موقعـــه من البيـــان والوضوح .. وكذلك عيار الاستعارة الفطنة وحسن التنبه .. وعيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخير من لذيذ الوزن الطبع واللسان مما يقبله الطبع ويستسيغه ولا يتعثر به اللسان ويصعب النطق به .. وتخير لذيذ الوزن يطرب الذوق بحسن ايقاعه واعتدال نظمه كما يطرب الفهم بصواب تركيبه .. وعيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية الدربة الطويلة والمدارسة الدائمة فبهما أداء اللفظ للمعنى وسلامته من الجفوة والنبو والزيادة والقصور وأن تكون القافية كالموعود به المنتظر يتم بها المعنى ويستوفى بها كماله والا

---

(١) أسس النقد الادبى ص٥٣٣ .
(٢) مقدمة شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ص٩ .

كانت قلقة فى مقرها مجتلبة يستغنى عنها فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب يجب الالتزام بها وبناء الشعر عليها .

ولقد أصبحت هذه التقاليد الفنية والاصول الملتزمة جزءا من كيان القصيدة من مقومات الفن الاصيل ، والفن لابد فيه من القيود التى تحفظ له خصائصه وتبقى على كيانه ولا تقضى عليه بضياع أو جمود .. **والحقيقة** أن القيود التى من شأنها أن تحفظ للشعر مقوماته وخصائصه وتحقق له العذوبة والروعة وسحر البيان ليست أغلالا لأن الشعر فن له قواعده وأصوله وهو بغير هذه القواعد والاصول لا يسمى شعرا ... ومن هذا المنطلق أجمع النقاد القدامى على ضرورة الالتزام بعمود الشعر العربى والتمسك بالاصول والقواعد والاسس التى أرسى دعائمها شعراء العصر الجاهلى الذين حققوا للقصيدة العربية شكلها المعروف ونهجها الفنى المألوف ولا ينبغى للشاعر أن يخل بشىء منه والا اعتبر خارجا عليه بمعنى أنه خرج على قواعد الشعر العربى وفنيته وطبيعته ..

وابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » يتناول بشرح وتفصيل وتوضيح نهج القصيدة العربية التى لا مناص من اتباعها والالتزام بها فيقول(١) « سمعت بعض أهل الادب يذكر أن مقصد القصيدة انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها اذ كان نازلة الوبر فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء الى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد والم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه فاذا علم أنه قد استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له عقب بايجاب الحقوق فرحل فى شعره وشكا النصب والسر وسرى الليل وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير فاذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة الامل التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير بدأ فى المديح فبعثه على المكافأة وهزه للسماح وفضله على الاشباه .. فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب وعدل بين هذه الاقسام فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٧ .

ولم يطل فيمل السامعين ... وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الاقسام فيقف على منزل عامر أو يبكى عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الاواجن الطوامى أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة ... » هكذا يقرر ابن قتيبة فى كتابه « الشعر والشعراء » **ويقرر النقاد كذلك** أن الشاعر الذى لا يعنى بالاصابة فيما يصف فينسب الى الشىء ما ليس له ولا يعنى بصحة المعنى ولا بدقته ولا يحفل باستقامة اللفظ ولا يراعى المشاكلة بين الالفاظ والمعانى ولا يجيد النسج وتخير الوزن هو خارج على عمود الشعر ، والشاعر الذى يتصنع ويتكلف ويلهث وراء الزخارف والمحسنات وان تفلتت منه المعانى مفارق أيضا لعمود الشعر والشاعر الذى يغوص على المعانى ويستخرج غريبها ونادرها ويسلك اليها سبل الغموض والخفاء مفارق كذلك لعمود الشعر فى رأيهم ... وكل هؤلاء كانوا مفارقين لعمود الشعر العربى لأنهم لم يلتزموا بالقواعد والاصول التى سبق بها الشعراء الاولون واقتفاها من جاء بعدهم حتى صارت سنة متبعة وعرفا متوارثا يتميز بها تليد الصنعة من الطريف وقديم نظام القريض من الحديث وتعرف مواطىء أقدام المختارين فيما اختاروه ومراسم اقدام المزيفين على ما يزيفوه ويعلم أيضا فرق ما بين المصنوع والمطبوع وفضيلة الاتى السمح على الاتى الصعب(١) ..

ورأيى الخاص فى هذه القضية أن عمود الشعر العربى يمثل هذه التقاليد الفنية والاصول الملتزمة التى أصبحه جزءا من كيان القصيدة بوصفها من مقومات الفن الاصيل ، والفن لابد فيه من القيود التى تحفظ له خصائصه وتبقى على كيانه ولا تقضى عليه بضياع أو جمود ... والقيود التى من شأنها أن تحفظ للشعر مقوماته وتحقق له العذوبة والروعة وسحر البيان ليست أغلالا ولا ينبغى أن تعد استبعادا فنيا اذ أن الشعر فن له قواعده وأصوله وهو بغير هذه القواعد والاصول لا يسمى شعرا ... **لكن ما نرفضه حقا**

---

(١) مقدمة شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ص٨ ، ص٩ .

ونأباه اشد الاباء أن تفرض اتجاهات خاصة أو أساليب معينة لا دخل لها فى طبيعة الفن بحجة أن الاقدمين كانوا يلتزمون بها ولا يحيدون عنها فذلك هو الجمود وتلك هى الاغلال ... ومعنى ذلك أننا نحترم عمود الشعر ونلتزم به مادام هذا « العمود » يمثل طبيعة الفن الشعرى الاصيل ويتيح للشعراء مجالا رحبا للابداع والتجديد فى حدوده وداخل اطاره .. أما أن يفسر هذا العمود تفسيرا خاصا لغرض قيود لا تقتضيها طبيعة الفن فهذا صنيع من يبغى قهر الحيـــاة وكبت المواهب .. وذلك ما نرفضـــه .. ان كل ما يحفظ للشعر خصائصه ومقوماته ويحقق له روعته وسحر جماله وعذب بيانه هو عمـــود للشعر بلا جدال ينبغى أن يلتزم به ولا يخرج أحد عليه وما لا دخل له فى هذه المقومات والخصائص فليس الالتزام به فرضا ولا يعد الخروج عليه ذنبـــا ، وعلى ذلك فالشاعر الذى لا يعنى بصحة المعنى ولا يحفـــل باستقامة اللفظ ولا يراعى المشاكلة بين الالفاظ والمعانى ولا يجيد النسج ولا يتخير الوزن هو خارج على عمـــود الشـــعر ، والشـــاعر الذى يتصنع ويتكلف ويلهث وراء الزخارف والمحسنات وان ضاعت منه المعانى هو أيضا مفارق لعمود الشعر ... أما الشاعر الذى يعيش بوجدان عصره وثقافته وعقليته ويعبر عن الحياة التى يحياها هو كما يحسها وكما يعرفها المعـــاصرون له وهو مع ذلك ملتزم بقواعد الفن وأصوله فهو فى رأيى ملتزم بعمود الشعر وان لم يقف على أطلال ولم يبك على ديار ولم يركب ناقة أو بعيرا ولم يقطع منابت الشيح والحنوة والعرارة ... والشاعر الذى يجدد ويبدع ويخترع المعانى ويجيد التصوير ويحسن التعبير ويستخدم الخيال المثير فهو فى رأيى كذلك ملتزم بعمود الشعر وان اتى بما لم يأت به الاوائل ... والشـــاعر الذى يغوص على المعـــانى ويهتم بدقة الافكار ويميل الى الرمز والايحاء أو الى نوع من الغموض والخفاء أو الى لون من الوان الصنعة يجيد استخدامه ويبرع فى صياغته واخضاعه لمعانيه دون تكلف فهو فى رأيى ملتزم بأصول الفن الشعرى وليس خارجا على عموده وان حكم عليه النقاد القدامى بالخروج ...

والقضية فى أيدينا وبرهانها أصول الصنعة فى الفن الشعرى وليس بوسع أحد أن يجعل أساليب الصنعة فى الفن الشعرى خروجا على عمـــود الشعر أو عدوانا على تقاليده ... وهذه القضية قديمة وصاحب الادعاء فيها قدامى النقاد والمتهمون هم المحدثون من الشعراء أو المولدون وموضوع الاتهام هو الخروج على عمود الشعر العربى ...

المحدثن من الشعراء أو « المولدون » :

المحدثون هم هؤلاء الشعراء الذين نشئوا فى العصر العباسى ، والمولد : اسم لكل من نشأ خالص العربية ثم صار فى الاصطلاح الادبى يطلق على كل من قال الشعر من أهل العصر الذى كثر فيه هؤلاء المولدون ولو كان عربيا قحا(١) .

والشعراء العباسيون يقسمون الى طبقات :

فالطبقة الاولى هم مخضرمو الدولتين كابن هرمة وأبى دلامة والحسين بن مطير وأبى حية النميرى وسديف بن ميمون وأبى الهندى وشار وصالح بن عبد القدوس وحماد عجرد والسيد الحميرى ومروان بن أبى حفصة وزعيم هذه الطبقة بشار فهو أبو المحدثين وأستاذهم **والطبقة الثانية :** نشأت فى صدر الدولة ومن شعرائها والبسة وسلم الخاسر والعباس بن الاحنف وأشجع السلمى وأبو الشيص وأبو نواس والفضل الرقاشى والعتابى ومنصور النميرى ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية ودعبل والحسين بن الضحاك وليس فيهم نظير أبى نواس وليس يفضل عليه مولد سوى بشار واشتهر منهم أبو العتاهية الذى يقول فيه ابن الاعرابى « ما رأيت أجمع ولا أقدر على بيت شعر منه وما أحسب مذهبه الا ضربا من السحر »(١) **والطبقة الثالثة :** تشتمل أبا تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز يقول ابن رشيق(٢) « طبقة حبيب والبحترى وابن الرومى وابن المعتز طبقة متداركة وتلاحقوا على من سواهم حتى نسى معهم بقية من أدرك أبا نواس ولم يذكر من أصحاب ابن الرومى وابن المعتز الا من ذكر بسببهما فى مكاتبة أو مناقضة ... بعد ذلك اشتهر من المشارقة السلامى وابن نباتة والشريف الرضى ومهيار وكانوا فى بغداد كما اشتهر من شعراء الشام ومصر المتنبى وأبو فراس الحمدانى وكشاجم والسرى الرفاء وأبو العلاء المعرى وابن سنان الخفاجى وابن سناء الملك وابن الفارض والبهاء زهير .

---

(١) الادب العربى وتاريخه فى العصر العباسى لمحمود مصطفى ص٣٨٣

(١) أغانى سلسى حـ٣ ص١٢٧ .

(٢) العمدة جـ١ ص٨٣ .

مظاهو الصنعة والابداع فى شعر المحدثين :

لقـــد جاء هؤلاء المحدثون بشعر جديد فيه ابتكار واختراع وبديع وتفنن وفيه كثير من الصنعة والابهار بترف الاداء وسحر البيان وجمـــال الاسلوب وعمق المعانى ودقة الافكار . . .جاءوا بشعر جديد فى شكله ومضمونه من وحى الحياة الجديدة التى عاشوها والحضارة المزدهرة التى عاصروها والمدنيـــة المتقدمة التى نعموا بها والفكر العميق الذى هيأته لهم معرفة شاملة وثقـــافة واسعة . . . جاءوا بشعر جديد يعبر عن « أيديولوجيـــة » متميزة ومقومات متكاملة الفكر والحياة والسلوك والعمل والامل . . . ولقد كانت الحرية وراء الحركة التجديدية الابداعية فى الشعر العباسى وما كان لها من ذيوع وازدهار . . . لقد انطلق الشعراء العباسيون فى مجال التجديد والابداع بحرية مطلقة ينهلون من معين الحياة الطيبة ويعتصرون رحيق كل فكر وثقافة وهم مع ذلك يتأثرون بالقديم ويتزودون من تراثه وكان هذا القديم دائما من بين الينـــابيع والروافد التى أمدتهم بطاقات كبيرة أمكنتهم من تحقيق تلك النهضة الادبيـــة **الشاملة . . انهم لم يزدروا هذا القديم** كما يدعى بعض الباحثين(٣) بل أنهم قد اتصلوا به اتصالا وثيقا وهم يحملون بين جوانحهم قلوبا مليئة بحب التجديد والرغبـــة فيـــه وأقبلوا عليه يتفيئون ظلاله وينهلون من ينابيعه وعيونه ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل زادوا فى معانى المتقدمين واهتدوا الى معان جديدة وأتوا بتشبيهات جيدة واستعارات طريفة وأخيلة مبتكرة وأغراض مستحدثة ومالوا الى تسهيل الاسلوب وتطويع الوزن الشعرى وافتنوا فى ضروب البديع وانماط وسائر الوان البيان وأتوا منها بكل طريف مبتكر ورائع معجب وخاضوا بالشعر مجالات جديدة بتأثير الاتجاهات الفكرية والحياة العقلية والدينيـــة والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ونذكر على سبيل المثال الشعر التعليمى وشعر الزهد والحكمة واستخدام أساليب المتعلمين ومصطلحات العلـــوم كما أنهم اتجهوا بالشعر اتجاها واقعيا باستخدام لغة الحياة القريبة من أذواق الناس الملائمة لروح العصر وبالصراحة والجـــرأة فى التعبـــير عن الجوانب الذاتية للانسان وما يسيطر عليه من أهواء وميول . . . وباستخدام لغـــة الحياة كانت المواجهة العنيفة بين المحـــدثين واللغويين ومن حذا حذوهم من النقاد وبالصراحة والجرأة والمكاشفة كانت المواجهة بين المحدثين والمحافظين

---

(٣) طه حسين حديث الاربعاء ج٢ ص٢٢ .

المتمسكين بالقيم الفنية للشعر العربى المؤمنين بالمقومات الاصيلة والعناصر الثابتة لفن الشعر .

قدامى النقاد بين التعصب والانصاف :

جاء المحدثون بهذا الشعر الجديد فتعصب عليه بعض النقاد وأعماهم التعصب عن محاسنه فأهملوه ولم يعترفوا له بقيمة ولم يسمحوا لانفسهم أن يرووه واتهموا أصحابه بالخروج على عمود الشعر العربى وحملوهم تبعة افساده والاخلال بقواعده وأصوله ... وتشدد بعض هؤلاء النقاد فلم يعتبروا المولدين من الشعراء ومن هؤلاء المتشددين أبو عمرو بن العلا الذى لم يحتج ببيت اسلامى فضلا عن أن يحتج بشعر المحدثين وقد قال عنهم : « ما كان من حسن فقد سبقوا اليه وما كان من قبيح فهو من عندهم » وتلميذه الاصمعى الذىكان يتعصب للقديملكن تعصبه لم يمنعهمن استحسان أبيات لابىنواس أشاد بها فى مجلسه .. وابن الاعرابى الذى كان يستحسن الابيات من الشعر غاية الاستحسان ويأمر بكتابتها فاذا علم انها المحدث أمر بتمزيقها وأشار الى الكلفة البادية عليها وآثار الصنعة التى انحرفت بها عن عمود الشعر العربى(١) ويروى عنه المرزبانى قوله « انما أشعار هؤلاء المحدثين مثل الرحان يشم يوما ويذوى فيرمى به وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا »(١) ومنهم اسحاق الموصلى الذى كان من أنصار الاوائل وتعصب على أبى نواس وطعن على أبى العتاهية وكان لا يعتد ببشار وكان يرى أن أبا تمام قد شدد على نفسه ...

ومن النقاد من يعتدل فى حكمه ويميل الى الانصاف وينظر الى الفن الشعرى فى ذاته ويتخذ منه أساسا للتقدير ومعيار للنقد الدقيق ومنهم الجاحظ وابن قتيبة والمبرد والقاضى الجرجانى وابن رشيق ... هؤلاء ومن سلك سبيلهم عرفوا للقديم قدره بجزالته وفصاحته وسلامة عبارته وقوة أسلوبه وصلاحيته للاستشهاد للنحويين ورواة اللغة . كما عرفوا للجديد روعته وما فيه من طرافة وابداع يقول ابن قتيبة(٢) « ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين

---

(١) الموازنة للآمدى ص٢٢ .
(١) الموشح للمرزبانى ص٢٤٦ .
(٢) الشعر والشعراء ص٥ ، ص٦ .

الجلالة لتقدمه والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت على الفـــريقين فأعطيت كلاحظه ووفرت عليه حقه فانى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه فى متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل فى زمانه ... فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له واثنينا به عليه ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه ، كما أن الردى اذا أورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » ويقول القاضى الجرجانى « ان الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منهـــا تكون مرتبته من الاحسان ولست أفضل فى هذه القضية بين القـــديم والمحـــدث والجاهلى والمخضرم والاعرابى والمولد » ... بيد أن هؤلاء لم يتخلصوا من عصبيتهم للاقدمين تماما فنحن نرى ابن قتيبة — مثلا — يقرر انه ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الاقسام فيقف على منزل عامر أو يبكى عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرســـم العافى أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما لأن المتقدمين رحلوا على النـــاقة والبعير ..

وابن رشيق يقول « مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه واتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن ... »(٣) .

وقد عد ابن دريد الشـــاعر الراوية اللغوى ٢٢٣ — ٣٢١ هـ شـــعر المحدثين من محاسن البصائر(١) وفضل خلف الاحمر ١٨٢هـ بعض نماذجهم الفنية على شعر الجاهلين اذ أنه أنشد بلامية مروان بن أبى حفصـــة وحكم بأنها أفضل عنده من لامية الاعشى ... وهذه نظرة موضوعية منصفة تتحرى والانطلاق على أسس واضحة من قواعد الفن وأصول الصنعة .

العدل والقصد وتتجرد من العصبية والهوى وتثبت للشعر حقه فى الحـــرية

مسلم بن الوليد وأبو تمام يتصدران قائمة المتهمين بمفارقة عمود الشعر العربى

أما مسلم فانه فيما يرى بعض النقاد قد أسرف وغالى فى صنعته وبالغ

---

(٣) العمدة جـ١ ص٧٤ .

فخرج عن الطبع الى التكلف وفشل فى التقليد فأسرف كذلك حتى أصبح الشعر صناعة لفظية يعبث بها شعراء العصور المتأخرة وهنا كان الفساد الذى استشرى فى رأيهم على يدى مسلم بن الوليد فالآمدلى يقول عنه انه أول من أفسد الشعر بالبديع(٢) وهو يقصد بافساده الشعر خروجه على عموده بتكلفه فى الصنعة والحاحه فى طلب البديع ، وابن رشيق يقول عنه فى مجال الموازنة بينه وبين أبى نواس « كان مسلم نظير أبى نواس وفوقه عند قوم من أهل زمانه فى أشياء الا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال مع تقبض كان فى مسلم واظهار توقر وتصنع وكان صاحب روية وفكرة لا يبتده ولا يرتجل »(٣) أما ابن دريد فله فى مسلم رأى آخر فهو عنده ملتزم بالنهج التقليدى القديم فى اطار الصنعة التى كلف بها وتمادى فيها ومسلم فى رأيه قد مزج كلام البدويين بكلام الحضريين فضمنه المعانى اللطيفة وكساه الالفاظ الظريفة فله جزالة البدويين ورقة الحضريين ... وفى رأيى أنه يصعب على الناقد حقا أن يحكم على شعر مسلم حكما واحدا فقد كان مسلم مشاعر متعدد الجوانب متفننا متصرفا فى شعره وكان بحكم نشأته فى الكوفة وروايته شعر امرىء القيس وزهير والنابغة ولبيد وعلقمة الفحل وغيرهم على مقدرة بارعة فى أن يمزج فن البادية بفن الحاضرة فيجمع بين جزالة البدويين ورقة الحضريين ويزاوج بين أصالة الاتباع وطرافة الابتداع .. وبدراسة شعر مسلم نرى أنه كان يعتمد على ألوان من البديع والزخرف اللفظى كما انه كان يلتزم بأنماط بيانه من التشبيه والمجاز والاستعارة وغيرها من ضروب التصوير وهذه الانماط من التصوير كانت معروفة وتلك الالوان من البديع كانت مألوفة وكل ما أضافه مسلم أنه قد تمادى فى بديعه وأفرط فى صنعته لكنه لم يخرج عن الاصول المعروفة فى الفن الشعرى ولم يخالف القواعد المقررة فى نظم القريض ويعتبر رائدا فيه فى معانيه وأفكاره وأغراضه وموضوعاته يستقى من نبع غزير فياض ويشارك الشعراء فى عصره مشاركة فعالة فيصف ما كانوا يصفون ويتناول من المعانى ما كانوا يتناولون ويبدع ويجدد فى تصويره

---

(١) الادب العربى وتاريخه فى العصر العباسى ص٣٨٥ .
(٢) الموازنة ص٨ .
(٣) مقدمة ديوان أبى نواس رواية الاصفهانى .

وتعبيره كما كانوا يبدعون ويجددون وقد يتمادى فى زخرف لفظى ولون بديعى فيؤخذ عليه تماديه ويحاسب به ولا تكون له فضيلة فيه ...

اما أبو تمام فقد كان شيئا غريبا على أذواق النقاد ... شيئا لم يألفوه من قبل ولم يعرفوا له مثيلا .. كان مولعا بالصنعة هائما بأنماط البديع وشياته يمزجها مزجا بفكره وعقله وفلسفته فيخرج منها كل غريب عجيب وانه ليعمد الى أعماق المعانى فيغوص عليها غوصا ويقتسرها اقتسارا مستخدما ما شاء من رمز وايحاء بمعاناة وكد حتى كان شعر مثار خصومة بين أنصار القدماء وأنصر المحدثين ... لقد جاء شعر أبى تمام على غير ما ألف القوم فتعثرت بشعره أفهام وضاق به خصوم فاتهموه بالخروج على عمود الشعر العربى ومخالفة التقاليد المألوفة التى التزم بها الشعراء من قديم ، يقول عنه الآمدى(١) « انه شديد التكلف صاحب صنعة ومستكره الالفاظ والمعانى وشعره لا يشبه أشعار الاوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعانى المولدة » ويقول « وجدتهم ينعون عليه كثرة غلطه واحالته وأغاليطه فى المعانى والالفاظ .. **وفى رأيى** أن ابا تمام لم يخرج على عمود الشعر فقد احتفظ للشعر بمقوماته وخصائصه وان غير فى شكله وملامحه .. لقد كان صاحب اندفاع عبقرى وقدرة فائقة عجيبة على استخراج الصور التعبيرية واستنباط المعانى الجديدة متتابعة متراكبة لا يسهل ادراكها ومتابعتها الا على متذوق ماهر »(٢) لم يكن **أبو تمام يقصد أن يكسر عمود الشعر او ان يخرج** على تقاليده وانما كان ينبغى أن يتجه بالشعر اتجاها عقليا فلسفيا يمزجه بعواطفه ومشاعره كما يمزجه بفنه وصنعته وبديعه وزخارفه وهو لا يفتعل ذلك افتعالا وانما يمضى اليه بما اختصه الله به من توقد وذكاء .. يروى أبو الفرج الاصفهانى أن عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير — ووه شاعر بدوى — قال فى تعليق له على أبيات لابى تمام « لله دره ما يعتمد معنى الا أصاب أحسنه كأنه موقوف عليه » وفى تعليق آخر يقول « كمل والله لئن كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعانى واطراد المراد

---

(١) الموازنة ص١١ .

(٢) دراسات فى الادب العربى فى أزهى عصوره لخفاجى ص٥٦ ، أبو تمام الطائى للبهبيتى ص١٤٢ والشعر فى بغداد لعبد الستار الجوارى ص٢٢٧ .

واتساق الكلام فان صاحبكم هذا أشعر الناس »(١) وهذا الكلا مواضح الدلالة على قدر أبى تمام وسمو منزلته وهو لا يتفق مع ما قيل فى شأنه من الغلط والاحالة اذ أن أبا تمام كان يبهر بعقله وسعة ثقافته وكمال علمه ومعرفته كما كان يبهر بصنعته وفنه وحسبه سبقا فى ميدان الشعر أنه أول من لوى عنان الفكر الى حلبة القريض بل ان الشعر العربى كفن لم يكتمل فى يد شاعر اكتماله فى يد أبى تمام ففيه عمق الفكرة وجمال اللفظ وروعة الصورة وبراعة الخيال وفيض الشاعرية وأصالة الموهبة وهو الذى احتفظ للقصيدة العربية بمكانتها من الفصاحة والجزالة ومتانة الاداء وأحكام البناء وفخامة العبارة وقوة الاسلوب فى اطار هذه الصنعة الدقيقة المركبة التى التزم بها وحرص عليها وافتن فيها فكان قبلة أصحاب المعانى وقدوة أهل البديع(٢) وكان بذلك كله صاحب مدرسة كبرى فى الشعر العربى ورائد مذهب فنى ومؤسس اتجاه أدبى .

وبعد فان عمود الشعر فى جوهره دعامة للشعر تتحقق به أصوله ومقوماته وترتكز عليه مذاهبه واتجاهاته ولا ينبغى أن يكون هذا العمود مقبرة لحركات الابداع والتجديد أو أن يشكل عقبة فى طريق المبدعين المجددين ... واذا كان الاقدمون قد التزموا بنهج خاص فى المعانى والافكار وانماط التعبير والتصوير وتعدد الاغراض والاساليب فان الله لم يقصر الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوما دون قوم بل جعل الله ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر .. وقد تختلف المقامات والازمنة والبلاد فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة .. ونذكر فى هذا المقام ما أورده ابن رشيق من كلام أبى محمد الحسن بن على بن وكيع وقد ذكر أشعار المولدين فقال « انما تروى لعذوبة ألفاظها ورقتها وحلاوة معانيها وقرب مأخذها ولو سلك المتأخرون مسلك المتقدمين فى غلبة الغريب على أشعارهم ووصف المهامه والقفار وذكر الوحوش والحشرات ما رويت لأن المتقدمين أولى بهذه المعانى ولاسيما مع زهد الناس

---

(١) الاغانى جـ١٥ ص٩٧ .
(٢) الوساطة للجرجانى ص١٥ ص٩٨ .

فى الادب فى هذا العصر وما قاربه وانما تكتب أشعارهم لقربها من الافهام »(١)

لم يقف الشعراء المحدثون عند حدود القديم ولم تكن بضاعتهم احتذاء وتقليدا بل انهم أبدعوا وابتكروا وجددوا وساروا فى كل اتجاه وتجاوزوا المألوف وواجهوا التحدى وأفلتوا من اسار القيود ومضوا يعبرون عن أنفسهم من وحى مشاعرهم وأحاسيسهم ونبضات قلوبهم فأبدعوا وجددوا وأتوا بما لم يستطعه الاوائل ... وكما يقول ابن الاثير فان باب الابتداع للمعانى مفتوح الى يوم القيامة .. ومن الذى يحجز على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له ؟ ..(٢)

لقد تذاكر الناس يوما فى مجلس محاسن الدنيا ونزهها وأطالوا فى ذلك وكان فيهم ابن دريد الشاعر الرواية اللغوى فقال لهم : « قد أكثرتم من ذكر محاسن الابصار فأين أنتم من محاسن البصائر ؟ فقالوا له : وماهى ؟ قال : شعر المحدثين ، وكتب الجاحظ ونوادر أبى العيناء ... »(٣) .

لقد كان الهدف الاسمى للشعر عند المحدثين شيئا آخر غير ما حرص عليه المتقدمون ، أرادوا أن يقرضوا شعرا يشف عن روعة الحياة وجمالها وفهموا من جمال الشعر وروائه غير ما فهمه الاقدمون فبرز الشعر فى ثوب جديد يغاير ما لبسه فى القديم وأصبح بعد حين من الزمان صنعة بالمعنى الصحيح يهم الشاعر فيه وراء الاصباغ البديعية التى اتسمت بسمات الحضارة والترف واتشحت بوشاح العقل المفكر والعلم الغزير والمزاج الرقيق والبيئة الاجتماعية المنظمة وفاضت بالمذاهب الدينية والفلسفية التى تنزع الى العمق والى التنسيق فابتعدت عن أصولها فى القديم وباينت ما كان يجرى منها على ألسن الاقدمين(١) . وهؤلاء الاقدمون كانت غايتهم المراجعة والتثقيف والتهذيب والتجويد وحسن التخير وحذف الفضول وسلامة البناء ومتانة الاداء بغير تكلف أو تصنع أما غاية المحدثين فقد كانت هى التفنن والاختراع والابداع تحقيقا للبهجة والرواء وترف الفن وروعة الجمال وسحر

---

(١) العمدة جا ص ص٧٤ ، ص٧٥ .
(٢) المثل السائر ص١٩ ، القسم الثالث
(٣) الادب العربى وتاريخه فى العصر العباسى ص٣٨٥ .
(١) الصيغ البديعى فى اللغة العربية لاحمد موسى ص٥٥ ، ٥٦ .

الاداء يقصـــدون الى ذلك قصدا ويفتنون فيه افتنـــانا ، يقـــول القـــاضى الجرجانى(٢) : « وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فأغزر ولمن كثت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحتل بالابداع والاستعارة اذ حصـــل لها عمود الشعر ونظام القريض وقد كان يقع ذلك فى خلال قصائدها ويتفق لها فى البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد فلما أفضى الشعر الى المحدثين ورأوا مواقع تلك الابيات من الغـــرابة والحسن وتميزها عن أخواتهـــا فى الرشاقة واللطف تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه « البديع » فمن محسن ومسىء ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط .. وقد صار هذا البديع فى القرنين الثـــانى والثالث الهجريين مذهبا فنيا وحركة تجديدية وكثر الخـــلاف حوله والصراع بسببه فريق المحافظين يزدرونه خروجا على عمود الشعر العربى — كما بينا — وفريق المعتدلين يرون فيه مشاكلة للعصر وتأثرا بالبيئة وخضـــوعا لتـــأثير الحضارة وقدرة رائعة على الابداع والتجديد ...

د . عبـــد الله حسين على سليمان

---

(٢) الوساطة ص٢٧ .